العدد السادس والعشرون
2009

مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا
1377 من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم 2009 مسيحي

- ملامح عن المذهب المالكي في الغرب الإسلامي
- الخطاب الإسلامي مميزاته والتحديات التي تواجهه
- الشيخ محمد عبده وصلاته بأعلام الإصلاح في المغرب الكبير
- اللغة وصناعة الهوية

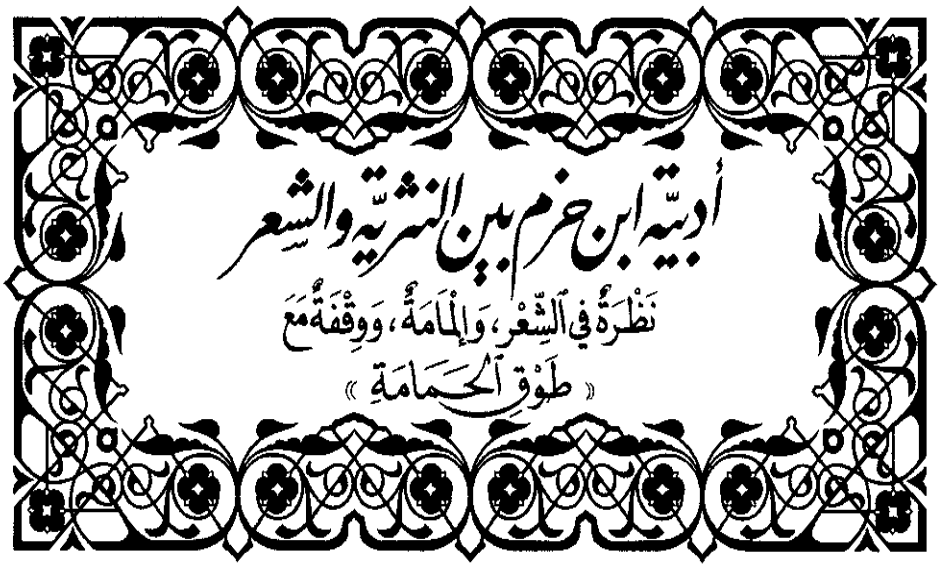

د. محمّد بهّ أحمد بهّ المحجوب

إن الكتابة عن قمة من قمم الغرب الإسلامي كالإمام أبي محمد علي أحمد بن حزم تستدعي الكثير من التصميم والإرادة والعزم، فهو بعبقريته الفذة استطاع أن يستوعب المعارف الأندلسية ويتمثلها بكل أصنافها وأطيافها، جامعاً بين ثقافة الشرع وعلوم الأدب واللسان، وذلك ما يجعل تناوله من غير المتخصص ضرباً من المغامرة، ورغم ذلك فإن هذه العجالة تصمم على أن تجوس خلال الحقل الأدبي من منتوج هذا الأندلسي ساعية إلى الوقوف على مكونات الصناعة الأدبية في مدوناته الشعرية والنثرية، فبم امتاز القريض في ديوانه، هل بلغ إلى مستوى الجودة والإبداع؟ أم إنه بقي في دائرة الصنعة اللفظية وشعر الفقهاء؟ فماذا عن نصوصه النثرية وقيمتها الفنية؟ فهل جددت في الشكل أو المضمون أم أنها على ما بها من طرافة ظلت وثيقة الصلة بالأساليب النثرية ذات الرتابة والجمود؟

وأخيراً كيف استطاع هذا الظاهري أن يجمع بين إشكالات الفقه والأصول ومقتضيات النثر والقريض؟ ذلك ما سنحاول الإجابة عنه عبر

هذه الصفحات مقسمين الموضوع إلى ثلاثة محاور يعرض أولها للمحددات الأولية ويتناول ثانيها الكتابة النثرية عند ابن حزم ويعرج ثالثها على التجربة الشعرية في ديوان الرجل، فماذا عن هذه المحاور؟

أولاً ـ المحددات الأولية:

وضمنها سنعرض لنقطتين، أولها تعمل على استنطاق الموضوع وتحليله، وثانيتهما تهتم بإبراز مكانة ابن حزم وتأثيره:

1 ـ العنوان محاورة وتحليل:

يتألف هذا العنوان من تركيبين، أولهما إضافي «أدبية ابن حزم» وثانيهما عطفي «النثرية والشعر» وقد ربط بينهما الظرف المكاني بين الذي جاء ليكشف عن تأرجح الرجل بين ثنائية إبداعية بالغة الأهمية ظلت تحكم إنتاجه الأدبي، والتركيب الأول مفتتح بكلمة «أدبية» وهي مصدر صناعي منسوب إلى الأدب، وهو في أبسط تعاريفه ما أثر من القول لجماله الفني وروعته الأسلوبية سواءً كان شعراً أم نثراً، وهذه الأدبية مضافة إلى «ابن حزم» وهو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفارسي الأصل القرطبي اليزيدي (384هـ ـ 456هـ) مولى الأمير يزيد بن أبي سفيان بن حرب الأموي، فقيه أصولي وشاعر فيلسوف ومتكلم منطقي يعد أبرز المنظرين للمذهب الظاهري والمدافعين عنه في أيامه، نشأ في نعمة ورفاهية ورزق ذكاء مفرطاً وذهناً سيالاً ومكانةً بارزة فكان والده من كبراء أهل قرطبة، عمل وزيراً، وكذلك وزر أبو محمد في شبيبته[1]، كان ماهراً في الأدب والأخبار والشعر.

أما التركيب الثاني فهو «النثرية والشعر» فالنثرية نسبة إلى النثر وهو الكلام الجيد يرسل بلا وزن ولا قافية، فهو خلاف النظم[2]، والشعر كلام موزون مقفى

(1) سير أعلام النبلاء للذهبي، (18/ 187) مؤسسة الرسالة، ط 1، بيروت 1984.

(2) المعجم الوسيط، إبراهيم أنيس وآخرون، القاهرة 1972، مادة نثر.

يدل على معنى ويؤثر في المتلقي، وقد كان أبو محمد مسهماً في البضاعتين متمكناً من سر الصناعتين، فماذا عن مكانته وتأثيره؟

2 ـ ابن حزم مكانته وتأثيره:

لا نريد في هذا المقام أن نقدم ترجمة لأبي محمد بن حزم، وإنما نكتفي بإيراد بعض التأثيرات العلمية، معززين لها ببعض التزكيات التي تبرز مكانته المتميزة، فقد نوه به عدد من الأئمة، وقد أدرجه الذهبي في سير أعلام النبلاء محاولاً أن يضعه في الميزان، معدداً جملة من حسناته دون أن ينسى الإشارة إلى بعض هناته، فانتهى إلى أنه: «رأس في علوم الإسلام متبحر في النقل عديم النظير على يبس فيه وفرط ظاهرية، ولم يتأدب مع الأئمة في الخطاب، فكان جزاؤه من جنس فعله، بحيث أعرض عن تصانيفه جماعة من الأئمة وهجروها»[1]، كما اعتبره آخرون عنوان التمكن في العلم، إذ هو حافظة الأندلس وخزانة الأدب والشعر، فهو «أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم معرفة مع توسعه في علوم اللسان ووفور حظه في البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار»[2].

أما أبو عبيد الله الحميدي فقد عده إمام الأندلس في الكتاب والسنة واستنباط الأحكام، مصرحاً بعلو كعبه في الأدب وجودة قريضه على البديهة، مؤكداً أنه جمع ديوانه، يقول: «كان حافظ الحديث وفقهه مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنة متفنناً في علوم جمة، عاملاً بعلمه، ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الفهم وكرم النفس والتدين، وكان له في الأدب والشعر نفس واسع وباع طويل، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه، وشعره كثير، وجمعته على حروف المعجم»[3].

---

(1) سير أعلام النبلاء، م، س، (18/ 187).

(2) المرجع السابق والصفحة.

(3) المرجع السابق والصفحة.

ونقرأ في البداية والنهاية لابن كثير كلاماً يعرض لأمر هذا العلم ويبرز موسوعيته وحدته، إذ «كان أديباً طيباً شاعراً فصيحاً كثير الوقيعة في العلماء بلسانه وقلمه، أورثه ذلك حقداً في قلوب أهل زمانه، وما زالوا به حتى بغضوه إلى ملوكهم فطرد عن بلاده»[1].

أما صاحب نفح الطيب فإنه عدد جملة من معارفه وأشاد بمكانته في أسلوب يشوبه التحفظ، فانتهى إلى أنه «صاحب حديث وفقه وجدل، له كتب كثيرة في المنطق والفلسفة، لم يخل فيها من غلط، وكان له تعلق بالأدب وشنع عليه الفقهاء وطعنوا فيه وأقصاه الملوك وأبعدوه (...) وعلى الجملة فهو نسيج وحده لولا ما وصف به من سوء الاعتقاد والوقوع في السلف الذي أثار عليه الانتقاد سامحه الله»[2].

ونرى ابن خلكان يبرز مكانته الأدبية منتهياً إلى أنه «كان أديباً شاعراً طبيباً، له في الطب رسائل وكتب في الأدب، وله كتاب صغير سماه نقط العروس، جمع فيه كل غريبة نادرة وهو مفيد جداً»[3].

فهذه شهادات عديدة تبرز مكانة هذا العلم الذي تمكن من ناصية الفقه والقريض، ولم يسلم في بعض الأحيان من حدة تحمله على التعرض لبعض الأعلام، في أسلوب ينكب صراط الكناية والتعريض.

ثانياً: الكتابة الفنية في نثر ابن حزم

إن المتصفح لتراث أبي محمد يجد فيه كتابات فنية غير يسيرة، فبالإضافة إلى طوق الحمامة سمعنا عن رسالة في فضل الأندلس غير أننا لم نتمكن من الوقوف عليها، وهنالك أيضاً مقدمات بعض الكتب التي يمكن أن تندرج

(1) البداية والنهاية، ابن كثير، (12/ 91).

(2) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لأحمد المقري، (2/ 78) دار صادر بيروت 1968.

(3) وفيات الأعيان لابن خلكان، (3/ 326).

في هذا السياق، غير أن ضيق الوقت وتحديد الموضوع جعلنا نقتصر على الطوق متخذين منه نموذجاً للدراسة بوصفه أهم منثور أدبي خلفه الرجل، فماذا عن هذه المذكرات الغرامية، وكيف أسهمت في تطور الأساليب النثرية في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري؟ وما أبرز مضامينها؟ وهل تأثرت بما سبقها أو أثرت فيما لحق بها؟ ذلك ما سنعرض له ضمن نقطتين، أولاهما تقدم المؤلف وتبرز مضامينه، وثانيتهما تعرض لمكانته الأدبية وأسلوبه، فماذا عنهما:

أ ـ طوق الحمامة رؤية وتقديم:

خلال هذا المحور سنتناول نقطتين، أولاهما تعنى بتقديم الكتاب وإبراز مادته ومضامينه بشكل مجمل، وثانيتهما تسعى على أن تحلل أمثلة من الكتاب واقفة مع بعض الشواهد، فماذا عن ذلك:

1 ـ كتاب الطوق مضمون وتقديم:

قبل البدء في تقديم هذا الكتاب وإبراز مضامينه نود لو نقف يسيراً مع عنوانه الذي يلفت الانتباه، ولا يخلو في نظرنا من اللبس والإشباه، فما المقصود بطوق الحمامة، وما علاقته بالألفة والألاف؟ إن هذا العنوان «طوق الحمامة في الألفة والألاف» يتألف من تركيبين أولهما نعتي «طوق الحمامة» وثانيهما عطفي «الألفة والألاف» وقد ربطت بينهما أداة الجر (في) التي جاءت لحاماً يشد أطراف التركيبين ويصل بعضهما ببعض، أما الطوق لغة فهو حلي العنق وكلُّ ما استدار بشيء، جمعه أطواق، وكبر عمرو عن الطوق أو شب يضرب لملابس ما هو دون قدره»[1]، والحمام كسحاب طائر بري لا يألف البيوت معروف، أو كل ذي طوق، وتقع واحدته على الذكر والأنثى كالحية، جمعه حمائم، ولا تقل للذكر

(1) القاموس مادة: طوق.

حمام، ومجاورتها أمان من الخدر والفالج والسكتة والجمود والسبات، ولحمه بهي يزيد الدم والمني، ودمها يقطع الرعاف»[1].

فهل كان ابن حزم حينما استعمل هذا التركيب الإضافي واعياً لكل دلالاته الحافة يرمي من ورائه إلى الأمان من تلك المذكورات، ويسعى إلى أن يوشي كتابه بزينة هذا الطير المبارك الميمون الذي يقال: إنه أصبح بعد أن باض على فم الغار رمزاً للسلامة والسلام وعنواناً للنجاة والأمان، غير أن الشطر الثاني من العنوان يضيق مجال الطوق ويحصره في حقل المحبة والغرام.

ونصل الآن إلى كتاب طوق الحمامة لنقول: إنه مؤلف يعرض لفلسفة الحب وأسس الجمال في نهج يغوص إلى أعماق العاطفة الإنسانية معتمداً التجربة والملاحظة والتحليل النفسي واستخلاص النتائج، وهو من أقدم الأبحاث العربية التي تتناول عاطفة الحب في أسلوب منهجي مفصل.

ومن الطريف أن يكون مؤلف هذا الكتاب فقيهاً، فمن المعروف أن التجارب الغرامية بعيدة عن الحقل الفقهي، غير أن طبيعة ابن حزم ونشأته وظروف عصره قد دفعته إلى تسطير هذا الكتاب الذي تفخر به المكتبة الأندلسية، فطبيعة الرجل صريحة جريئة، ونشأته غرامية عاطفية، وظروف عصره قاسية عاتية أرغمته على أن يترك موطنه قرطبة ويعيش مهاجراً غريباً في شاطبة، فولد ذلك في نفسه حنيناً إلى أيام المسرات، واستحضار سالف الملذات واسترجاع الذكريات، وهنا يكون الحديث عن الحب أمراً طبيعياً عند فقيه خبير بتجارب الغرام وأقاصيص الحب، صاحب حدة وصراحة، يعيش في عزلة عن الأهل والأقربين.

ويصرح ابن حزم أن كتابه جاء رداً على رسالة وردت إليه من مدينة المرية تسأل عن ماهية الحب ومعانيه وأسبابه وأغراضه وما يقع فيه على سبيل الحقيقة،

(1) المصدر السابق مادة حمم.

وقد يكون الأمر كذلك، كما قد يكون هذا السؤال مجرد تسويغ لتسطير الكتاب وهو ما يرجحه بعض الباحثين، معززاً رأيه بأن ابن حزم كان معروفاً بين الأندلسيين بالفقيه لا الباحث في الحب، فغريب أن يسأله سائل أن يحدثه حديثاً مفصلاً عن الحب ومعانيه وأسبابه وأغراضه لا عن الفقه الظاهري والأصول والتوحيد وما إلى ذلك مما من شأنه أن يسأل عنه[1].

ورغم وجاهة هذا الرأي إلا أن السائل قد يكون تربا للمؤلف عارفاً بسيرته الذاتية وأيام طفولته، إذ نشأ في بحبوحة الترف ومجالسة النساء ومغازلتهن، غير أن عدم التصريح باسم هذا السائل وإيراده في صيغة المبهم المذكر قد يرجح عدم وجوده أصلاً، والعلم عند الله.

وقد جعل ابن حزم كتابه ثلاثين باباً تتبع ضمنها الحب في نشأته وتطوره وأغراضه ودرجاته وأنواعه ومسعداته ومنغصاته، وهو في كل باب يتحدث عن الموضوع الذي يعرض له معرفاً ومحللاً ومعللاً، ثم يشفع ذلك ببعض الحكايات الواقعية التي شاهدها وسمع بها، وكلها تدور حول الأندلسيين، وهو يضمن كلامه قطعاً شعرية نظمها في حالات مشابهة للتجارب التي يسوق عنها الحديث، وقد صدَّر كتابه ببيان منهجه في التأليف قائلاً: «وقسمت رسالتي هذه على ثلاثين باباً منها في أصول الحب عشرة، ومنها في أغراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة اثنا عشر باباً، ومنها في الآفات الداخلة على الحب ستة أبواب، ومنها بابان ختمنا بهما الرسالة، وهما باب الكلام في قبح المعصية، وباب في فضل التعفف».

2 ـ كتاب الطوق رؤية وتحليل:

نود خلال هذه النقطة أن نسوق فقرات من الكتاب تمكننا من الغوص إلى مضامينه، بادئين بفقرة أوردها ضمن «باب من أحب بالوصف» وقد جعله ابن

(1) الأدب الأندلسي، من الفتح إلى سقوط الخلافة، أحمد هيكل، دار المعارف، 1979، ص 396.

حزم من أطرف أنواع العشق وأغربها محدداً وسائله وأسبابه وأعراضه يقول: «ومن غريب أصول العشق أن تقع المحبة بالوصف دون المعاينة، وهذا أمر يترقى منه إلى جميع الحب، فتكون المراسلة والمكاتبة، والهم والوجد والسهر على غير الإبصار، فإن للحكايات ونعت المحاسن ووصف الأخبار تأثيراً في النفس ظاهراً، وأن تسمع نغمتها من وراء جدار، فيكون سبباً للحب واشتغال البال، وهذا كله قد وقع لغير ما واحد، ولكنه عندي بنيان هار على غير أس، وذلك أن الذي أفرغ ذهنه في هوى من لم ير لابد له إذ يخلو بفكره أن يمثل لنفسه صورة يتوهمها وعيناً يقيمها نصب ضميره، لا يتمثل في هاجسه غيرها، قد مال بوهمه نحوها، فإن وقعت المعاينة يوماً ما فحينئذٍ يتأكد الأمر أو يبطل بالكلية»[1].

ويعزز رأيه في جانب الحب بالوصف بفقرة أخرى ضمن «باب طي السر وكتمانه» يقول: «من بعض صفات الحب الكتمان باللسان، وجحود المحب إن سئل، والتصنع بإظهار الصبر، وأن يرى أنه خلي ويأبى السر الدقيق، ونار الكلف المتأججة في الضلوع إلا ظهوراً في الحركات والعين، ودبيباً كدبيب النار في الفحم والماء في يبس المدر، وقد يمكن التموه أول الأمر على غير ذي الحس اللطيف، وأما بعد استحكامه فمحال. وربما يكون السبب في الكتمان تصاون المحب عن أن يسم نفسه بهذه السمة عند الناس»[2].

ونكمل هذه النماذج المقتبسة من الطوق بفقرة تعرض لماهية الحب وحدوده، حيث انتهى المؤلف إلى أنه تجربة شعورية تعاش ولا توصف، تمارس ولا تُعَرَّفُ، وهو شرعاً مباح، يقول: «الحب أعزك الله أوله هزل وآخره جد، دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة، وليس بمنكر وأكثر من ذلك يسترسل في الموضوع مؤكداً على جانب التآلف والتواصل بين أبناء الجنس

(1) الأدب الأندلسي، م، س، ص: 398.

(2) المرجع السابق والصفحة.

الإنساني، محاولاً أن يقف على أسرار ذلك يقول: «وقد علمنا أن سر التمازج والتباين في المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال، والشكل دأباً يستدعي شكله، والمثل إلى مثله ساكن، والمجانسة عمل محسوس وتأثير مشاهد»[1].

ويحرص الكتاب في معظم فقراته على تبيان مضار الاختلاط بين الرجال والنساء، مبدياً الأثر السيئ لذلك على كلا الجنسين، فالمؤلف فقيه بالشرع ملتزم. لذلك عالج الحب من زاوية ملتزمة تدعو إلى الحجاب والحشمة وفصل الرجال عن النساء، والعمل على سد الذرائع والأبواب أمام فرص اللقاء والخلوة والاختلاط يقول:

«فمن ذا الذي يصف نفسه بملكها ويتعاطى ضبطها إلا بحول الله وقوته»[2]، ويستدل لذلك بالأثر: «باعدوا بين أنفاس الرجال والنساء»[3]، ويدعم هذا الموقف باعتراف من إحدى الأعرابيات قد حبلت من ذي قرابة لها فلما سئلت عما ببطنها أجابت قائلة «قرب الوساد وطول السواد»[4]، ويسوق المؤلف في هذا الكتاب قصصاً كثيراً سمعها من الثقات وتؤكد خطر الاختلاط والخلوة وحاجة المرأة إلى المحارم والأرحام، مذكراً بأن النفس أمارة بالسوء وقليل من يستطيع مقاومتها، ولعل أوضح مثال على ذلك ما يحكى عن امرأة متعبدة مجتهدة أنها قالت: «لا تحسن الظن بامرأة قط»[5].

ب ـ طوق الحمامة مكانة وأسلوب:

ونتناول في هذا المحور نقطتين، أولاهما تتحدث عن مكانة هذا المؤلف بين كتب الشوق والغرام، وثانيتهما تعنى بأسلوبه وطرائق التعبير فيه:

(1) المرجع السابق، ص: 6.

(2) المرجع السابق والصفحة.

(3) كشف الخفاء للعجلوني.

(4) طوق الحمامة، م، س، ص: 138.

(5) المرجع السابق والصفحة.

1 ـ الطوق تأثر وتأثير:

نود الإشارة هنا إلى أن تناول موضوع الحب والغرام في الثقافة العربية الإسلامية ليس جديداً كل الجدة، فقد ألفت فيه الكتب والمصنفات، فما كان ابن حزم في طوقه بدعاً من المؤلفين، فقد سبقه في هذا الحقل جماعة ولحق به آخرون، وعملوا جهدهم على الإحاطة بجوانبه، فذللوا الصعب وراضوا الحرون، فماذا عن منزلة طوق الحمامة بين هذه المسطورات الغرامية؟

*** المؤلفات السابقة على الطوق:**

يحسن التنبيه إلى أن قضية الحب شغلت رواد الثقافة والفكر مع مطلع القرن الثالث الهجري، فالمسعودي في كتابه مروج الذهب أورد حديثاً مفصلاً عن مجلس في قصر يحيى بن خالد البرمكي ضم اثنا عشر مسلماً وموبذاً واحداً، فقدم كل واحد منهم رأيه في طبيعة العشق في جمل محكمة، فانتهوا إلى أن «الحب ثمرة المشاكلة بين المحب والمحبوب، ولا يكون إلا بازدواج النفسين وامتزاج الشكلين، وهو دليل على تمازج الروحين، وهو يتخلل في القلب كما تتخلل قطرات المطر بين ذوات الرمل، وهو سحر أخفى وأحر من الجمر»[1].

ويأتي الجاحظ (ت 255هـ) بعد هذا الجمع ليكون من أوائل المؤلفين العرب في حقل الحب الإنساني فقد تعرض للمحبة في موضعين، أولهما كتابه «الحيوان» حيث أفاض القول في الجانب العملي منه، أما ثانيهما فرسالة صغيرة في العشق والنساء، وقد ساق ضمنها صورة للمرأة النموذج في أيامه، مؤكداً أن عامة الناس من البصراء بجوهر النساء «يقدمون المجدولة، والمجدولة في النساء تكون في منزلة بين السمينة والممشوقة، ولابد من جودة القد وحسن الخرط،

(1) دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، دكتور طاهر أحمد مكي، دار المعارف، ط 3، 1983، ص: 277.

واعتدال المنكبين واستواء الظهر، ولابد أن تكون كاسية العظام، بين الممتلئة والقضيفة، وإنما يريدون بقولهم مجدولة، جودة العصب وقلة الاسترخاء، وأن تكون سليمة من الزوائد والفضول، لذلك قالوا: خمصانة سيفانة وكأنها جان، وكأنها قضيب خيزران، والتثني في مشيها أحسن ما فيها، ولا يمكن ذلك من الضخمة والسمينة وذات الفضول والزوائد، وقد وصفوا المجدولة بالكلام المنثور، فقالوا: أعلاها قضيب وأسفلها كثيب»[1].

وبعد ذلك نشير إلى رسالة العشق لأبي يوسف يعقوب الشهير بالكندي (ت 873م) وهي ضمن مؤلفاته المفقودة، ثم كتاب الزهرة لأبي بكر محمد بن داود الظاهري (ت 910م) وقدم لكتابه في مقدمة مشجعة يقول فيها: «من كثرت لحظاته دامت حسراته، العقل عند الهوى أسير والشوق عليها أمير، من تداوى بدائه لم يصل إلى شفائه»[2].

وهذا الكتاب اطلع عليه ابن حزم، واستفاد منه في كتابه طوق الحمامة، وثمة أوجه شبه كثيرة بين الكتابين، ليس هذا موضوع تفصيلها، وندرج في هذا السياق محمد بن أحمد بن إسحاق الوشاء (ت 930م) صاحب كتاب «الموشى» وعرف باسم «الظرف والظرفاء» وكذلك كتاب في العشق يذكر للشاعر عبدالله ابن المعتز (ت 908م).

ونبلغ إلى رسالة ابن سينا (ت 1038م) الذي خلف رسالتين في «العشق» وكان معاصراً لابن حزم أو أسبق منه بسنوات، فهل عرف العالم القرطبي رسالة ابن سيناء؟ يذهب بعض الباحثين إلى أنه لم يطلع عليها. تلك هي أبرز الكتب التي عرضت للحب قبل ابن حزم، ولم يعرض الفقيه الظاهري لأي منها في كتبه، سوى إشارة عابرة لكتاب الزهرة لأبي داود.

---

(1) المرجع السابق، ص: 283.

(2) المرجع السابق، ص: 287.

* المؤلفات التالية للطوق:

وقد تواصل التأليف في العشق والغرام بعد ابن حزم، فكان لكتابه طوق الحمامة بعض التأثير في الكتب التي ألفت بعده، فسطر أبو محمد جعفر بن أحمد السراج، (ت 500هـ) كتابه «مصارع العشاق» وهو حشد من الروايات والأخبار والأشعار، مسندة ومرسلة، يوردها دون تحليل أو نقد أو موازنة، وهو على النقيض تماماً من كتاب ابن حزم، ويمتد هذا الاتجاه مع أبي الفرج عبد الرحمن المعروف بابن الجوزي (ت 580هـ) في كتابه «ذم الهوى» ومعظمه في التحذير من الهوى والشبهات، والتنبيه إلى فضل العقل والأناة فقد خص النظر بأبواب عديدة تدور حول الأمر بغض البصر وذم فضول النظر، ويبدو أن صاحب هذا الكتاب لم يقرأ الطوق «إذ لا يلتقي معه في رأي أو منهج أو فكر، ومسافة الخلف بينهما واسعة»[1].

أما روضة المحبين لابن قيم الجوزية (ت 751) فهي موسوعة في الحب تتناول حب الله وحب الأقران والأموال والنساء والألحان «فبالمحبة وللمحبة وجدت الأرض والسماوات، وعليها فطرت المخلوقات، وبها ظفرت النفوس بمطالبها وتخلصت من معاطبها» ويتضح إذن من الكتاب أن صاحبه اطلع على الطوق، إذ يعمل على مناقشة بعض الآراء الواردة فيه، فهو مثلاً يرفض رأي ابن حزم في أن سبب الحب الاتصال بين أجزاء النفوس المقسومة بين الخليقة في أصل عنصرها الرفيع.

ونعرج على ديوان الصبابة لابن أبي حجلة التلمساني (ت 776هـ) والذي يشير في السطور الأولى من مقدمته إلى طوق الحمامة، وربما انتهج منهجه في ترتيب الأبواب، إذ رتب كتابه على غرار ما في الطوق، وقد قسمه إلى مقدمة وثلاثين باباً وخاتمة، وأحياناً ينقل عنه بعض الفقرات[2].

(1) المرجع السابق، ص: 335.

(2) المرجع السابق، ص: 243.

ونبلغ إلى البقاعي (ت 885هـ) فقد ألف كتاب في الحب أسماه «أسواق الأشواق»، وهو اختصار لكتاب «مصارع العشاق» المتقدم، والأنطاكي (ت 1008هـ) الذي ألف كتاب «تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق» ويبدو أن مادتها شرقية في جملتها، ومصادرها كذلك، فيستبعد أن يكونا اطلعا على طوق الحمامة والله أعلم.

وزيادة على ذلك فإن طوق الحمامة ترجم إلى لغات عالمية، وكان موضع دراسات استشراقية كثيرة، فقد ترجمه المستشرق الإسباني غرسيه كومث إلى لغته الأم، وكتب عنه ليفي ابروفسنال مقالاً بعنوان «نزهة بلا رابط خلال طوق الحمامة» وتناوله المستشرق الهولندي رينهاوت دوزي في كتابه «تاريخ مسلمي الأندلس»، كما كتب عنه الراهب الإسباني مجيل أسين بلاثيوس دراسة هامة تشير إلى رومانسيته. ومما سبق نعلم تأثير هذا الكتاب وانتشار ذكره في العالم وتسربه إلى كثير من اللغات، وكان اعتماده موضوعاً لجملة من الدراسات.

2 ـ الطوق نمط وأسلوب

نريد الإشارة هنا أولاً إلى أن ابن حزم اختار في كتابه نمط الجمع بين النظم والنثر، فكان يسوق الآراء العديدة والقصص الكثيرة، ثم يعززها ببعض أشعاره، لترسخ في الذاكرة وتنطبع في الأذهان، ولعل في ذلك ضرباً من المتعة والفنية والجمال الأسلوبي، فلا غرو إذن أن يوشي ابن حزم كتابه بالكثير من الأشعار التي تتصل بموضوعات الكتاب، وغالباً ما تتراوح هذه الأشعار بين البيت الواحد والقطعة والقصيدة، وهذه الأشعار في جملتها من إنتاج المؤلف. فلم يتضمن كتاب الطوق أشعاراً لغيره إلا في حالات نادرة منها أبيات تغنت بها جارية في حفل أقيم بقرطبة حضره علية القوم ويصف ابن حزم الأبيات بأنها قديمة وهي:

غزال قد حكى بدر التمام ... كشمس قد تجلت من غمام

سبى قلبي بألحاظ مراض ... وقد الغصن في حسن القوام

فـصلني يـا فـديتك في حـلال فـما أهـوى وصـالاً في حـرام

وأسلوب ابن حزم في كتابه أسلوب التوسع والاستطراد والاسترسال، فإذا ما تحدث عن المرأة مثلاً علمت أنه خبير بأسرارها، مطلع على حقيقتها، مهتم بالأخبار، فقد شب يعرف الكثير من دخائل القصور، ومؤامرات النساء، وحيل الجواري، وأكسبه ذلك شكاً فيهن وسوء ظن في جهتهن، يقول: «شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يعلمه غيري، لأني تربيت في حجورهن ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب وحين تبقل وجهي»[1].

ولا يكتفي بهذا القدر، بل يزيد الفكرة وضوحاً والأسلوب توسعاً واسترسالاً، مبيناً خطورة الحب وكثرة الوقوع في شراكه يقول: «وما رجل عرضت له امرأة جميلة بالحب وطال ذلك ولم يكن ثم مانع إلا وقع في شرك الشيطان واستهوته المعاصي وتغوله الطمع، وما امرأة دعاها رجل لمثل هذه الحالة إلا وأمكنته حتماً مقضياً وحكماً نافذاً»[2].

ثم يستطرد إلى قوة الرغبات الجنسية وشدة تأثيرها إذ تدفع إلى التفنن في سبيل الاستمالة والاصطياد والتنوع في صيغ الاستعطاف والاحتيال، يقول: «وشيء أصفه لك تراه عياناً هو أني ما رأيت قط امرأة في مكان تحس أن رجلاً يراها أو يسمع حسها إلا أحدثت حركة فاضلة كانت عنها بمعزل، وأتت بكلام زائد كانت عنه في غنية مخالفين لكلامها وحركاتها قبل ذلك، ورأيت التهمم لمخارج لفظها وهيئة تقلبها، لائحاً فيها، ظاهراً عليها لا خفاء به، والرجال كذلك إذا أحسوا بالنساء»[3].

(1) طوق الحمامة، م، س، ص: 138.

(2) المرجع السابق والصفحة.

(3) المرجع السابق والصفحة.

يبدو نثر الرجل من خلال الطوق بعيداً عن الصنعة والتكلف، فهو يؤثر السهولة والبساطة على التأنق والحلية اللفظية، عباراته قريبة المأخذ متناسقة مرتفعة عن التعقيد مكتفية باللفظ اليسير الذي يوصل الفكرة بوضوح عبر أسلوب لم يسلم من تأثيرات ثقافة عقلية دينية تجلى حضورها بشكل مكثف على أديم هذا الكتاب، فظلت العبارات المتخصصة دوماً تطفو على سطح الأسلوب وخاصة مصطلحات الفلسفة والمنطق، وأكثر من ذلك كان المؤلف يهتم بالعلل والمقدمات والنتائج دون أن ينسى المصطلحات الفقهية، مما يجعل نثره في هذا الكتاب مزيجاً من العلم والفن وأسلوبه هجيناً يضم الفكر إلى العاطفة ويجمع العقل إلى الخيال.

ثالثاً ـ التجربة الشعرية في ديوان الرجل:

سنعرض في هذا المحور لنقطتين، أولاهما تعنى بالأغراض الشعرية المطروقة في الديوان، وثانيتهما تهتم بمستوى الجودة والإبداع عند هذا الفقيه الظاهري، فماذا عن هاتين النقطتين؟

أولاً ـ الديوان: بنية وأغراض:

يجدر التنبيه هنا إلى أن «طوق الحمامة» يحتوي الجزء الأكبر من شعر ابن حزم، إذ يضم 179 قطعة تشتمل على 789 بيتاً. ويبدو أن ديوان الرجل جمع في وقت مبكر، إذ اعتنى به تلميذه أبو عبدالله الحميدي، حيث يقول: «وشعره كثير، جمعته على حروف المعجم»[1].

ولعل هذا المجموع لم يتداول كثيراً، ولم يبلغ إلى أيدي الناس بعد، إذ لا يوجد له ذكر في المصادر التي تتناول هذا الرجل بالدرس، وبالإضافة إلى ما تضمنه الطوق توجد عدة مقطوعات متناثرة في مصادر متنوعة، منها «الذخيرة لابن بسام» ونفح الطيب للمقري، والجذوة للحميدي، ومطمح الأنفس لابن

(1) سير أعلام النبلاء (18/ 187).

خاقان، والصلة لابن بشكوال، والبغية للضبي، وشرح مقامات الحريري للشريشي، وسير أعلام النبلاء للذهبي وغيرها.

ولا غرو أن يكون كتاب الطوق جامعاً لهذا القدر الكثير من الشعر، فهو كتاب ألف عن الحب والمحبين، والحب وثيق الصلة بالشعر، لذلك كثيراً ما وشى ابن حزم كتابه ببعض المقطوعات ذات الصلة بموضوعات الكتاب.

ولما كان هذا الكتاب يمثل مرحلة التوهج في حياة المؤلف العاطفية والإبداعية، تعددت بعض الأغراض ضمنه، فنراه يتناول الحب ودوافعه، والوصل ومتعته، والنفس ونوازعها، والحزن وأسبابه، والتضحية ومواطنها، والصبر وثماره. غير أننا إذا تجاوزنا مادة الطوق الشعرية وجدنا الفقيه الظاهري يغطي بقريضه جملة من الأغراض كالفخر والاعتزاز والحكم والأمثال والاعتناء بأصول السنة والكتاب، ومعاناة هموم الحياة وذلك ما سنعرض له من خلال خمس نقاط نبرزها فيما يأتي:

أ ـ الجنوح إلى الغزل والخيال:

إن ابن حزم الفتى الغزل عرف المرأة وأحبها وفتن بجمالها وتذوقه ورقت عاطفته مستجيباً لداعي الهوى، فنراه يرد على أولئك الذين أخذوا عليه الهيام باللون الأشقر، مصرحاً أنه لون الذهب والنرجس والنور، فهو زينة وجمال، على العكس تماماً من لون السواد الذي يبدو في عين الشاعر محتقراً مذموماً، إذ هو ملبوس أهل الحداد وأصحاب الجحيم يقول[1]:

يعيبونها عندي بشقرة شعرها ... فقلت لهم هذا الذي زانها عندي

يعيبون لون النور والتبر صلة ... لرأي جهول بالغواية ممتد

وهل عاب لون النرجس الغض عائب ... ولون النجوم الزاهرات على البعد

(1) دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، م، س، ص: 372.

وأبعـد خلـق الله مـن كـل حكمـة مفـضل جـرم فـاحم اللـون مـسود
بـه وصـفت ألـوان أهـل جهـنم ولبـسة بـاك مثكـل الأهـل محتـد

وفي قطعة أخرى نقف على جانب من التغني بالحبيبة لدى الشاعر الحزمي إذ يبرز ما لها من ملاحة وإشراق وفتنة وجمال، راسماً جسمها في صورة شعرية رائعة يكتفي صاحبها بأن يرى عمله يوم الحساب على هيئة هذه الحبيبة وشكلها يقول[1]:

فريـدة صـاغها الـرحمن مـن نـور جلـت ملاحتهـا عـن كـل تقـدير
لو جاءني عملي في حسن صورتها يوم الحساب ويوم النفخ في الصور
لكنـت أحظـى عبـاد الله كلهـمُ بـالجنتين وقـرب الخـرد الحـور

ونقرأ في مقطوعة أخرى تشبيهات رائعة تعرض لقوام المحبوبة وهيفها وتمايلها وتأثير حليتها على النفس إذ تمشي بدعة في نغمات موقعة يقول[2]:

كأنهـا حـين تخطـو في تأودهـا قضيب نرجسة في الروض مياس
كـأنما خطوهـا في قلـب عاشـقها ففيه من وقعها خطر ووسواس
كـأنما مـشيها مـشي الحمامـة لا كـد يعـاب ولا بـطء بـه بـاس

ونجد الرجل ينكر الحب من النظرة الأولى منظراً لهذه المسألة تنظيراً واضحاً يؤكد إعجابه الكامل بمن يرى غير هذه الرؤية يقول[3]:

محبـة صـدق لم تكـن بنـت سـاعة ولا وريـت حـين ارتيـاد زنادهـا
ولكـن عـلى مهـل سرت وتولـدت بطـول امتـزاج فاسـتقر عمادهـا
فلـم يـدن منهـا عزمهـا وانتفاضـها ولم ينـأ عنهـا مكثهـا وازديادهـا

(1) المرجع السابق والصفحة.
(2) المرجع السابق ص: 373.
(3) المرجع السابق، ص: 375.

وننتهي إلى قطعة تبرز فلسفة ابن حزم في الحب مواجهة اللوام في أسلوب من الجدل يقوم على المحاورة والإقناع، ويعمل على سد الطرق أمام تحريم الهوى أو منعه يقول[1]:

يلوم رجال فيك لم يعرفوا الهوى ... وسيان عندي منك لاح وساكت
يقولون جانبت التصون جملة ... وأنت عليم بالشريعة قانت
فقلت لهم هذا الرياء بعينه ... صراحاً وزي المرائين ماقت
متى جاء تحريم الهوى عن محمد ... وهل منعه في محكم الذكر ثابت
إذا لم أواقع محرماً أتقي به ... مجيئي يوم البعث والوجه باهت
فلست أبالي في الهوى قول لائم ... سواء لعمري جاهر أو مخافت
وهل يلزم الإنسان إلا اختياره ... وهل بخبايا اللفظ يؤخذ صامت

ب ـ الصدور عن الحكم والأمثال:

كان ابن حزم جامعاً بين عمق الرؤية وسعة المعرفة، مما أورثه قدرة عالية على صياغة آرائه في حكم بالغة وأمثال مؤثرة، من ذلك جملة التجارب التي استخلصها من معايشة الزمان وتقلب أحواله، مؤكداً أن أحزانه ومآسيه تفوق مسراته بأضعاف كثيرة.

ولعل ذلك ما يحمل الإنسان أحياناً إلى الضجر من هذه الحياة الدنيا التي اختزلها الشاعر في أبعاد ثلاثية هي: الحنين إلى الماضي، والاشتغال بالحاضر، والتوجس من المستقبل، وكلها أمور تفقد العيش لذته والحياة طعمها يقول[2]:

هل الدهر إلا ما عرفنا وأدركنا ... فجائعه تبقى ولذاته تفنى
إذا أمكنت فيه مسرة ساعة ... تولت كمر الطرف واستخلفت حزنا

(1) الأدب الأندلسي، م س، ص: 399.

(2) سير أعلام النبلاء، م، س، (18/ 206).

إلى تبعـــات في المعـــاد وموقـــف نـــود لديـــه أننـــا لم نكـــن كنـــا
حنـين لمـا ولى وشـغل بـما أتـى وهـمٌّ لمـا نخـشى فعيـشك لا يهنـا
حـصلنا عـلى هـمٍّ وإثـم وحـسرة وفـات الـذي كنـا نلـذ بـه عنـا
كـأن الـذي كنـا نـسر بكونـه إذا حققتـه الـنفس لفـظ بـلا معنـى

ونجد ابن حـزم يقـدم للآخـرين جملـة مـن النـصائح في حقـل الغـزل والمرأة، محذراً من الاختلاط الذي اعتبره محنـة وفتنـة، مـشبهاً التقـاء الرجـل بالمرأة باقتراب العرفج من اللهب، مـصرحاً بفـساد الزمـان وغيـاب الأمانـة وفقدان الثقة، معللاً خطورة الأمر بوجود ميول جنـسية لـدى الفـرد بـشكل فطري وتلقائي يقول[1]:

لا تلـم مـن عـرض الـنفس لمـا لـيس يـرضى غـيره عنـد المحـن
لا تقـرب عرفجـاً مـن لهـب ومتـى قربتـه قامـت دخـن
لا تـصرف ثقـة في أحـد فـسد النـاس جميعـاً والـزمن
خلـق النـسوان للفحـل كـما خلـق الفحـل بـلا شـك لهـن
كـل شـكل يـشتهي شـكله لا تكـن عـن أحـد تنفـي الظـنن

ج ـ الرجوع إلى أصول الكتاب والسنة:

لا بأس من الإشارة إلى أن ابن حزم كان أول الأمـر شـافعي المـذهب ثـم صار ظاهرياً، فوضع الكتب في هـذا المـذهب وثبـت عليـه إلى أن مـات، وظـل حياته ينافح عنه، مما جعله كثير الوقيعة في العلماء بلـسانه وقلمـه، فأورثـه ذلـك حقداً في قلوب أهل زمانه، غير أن ذلك لم يوهن من قوتـه، فظـل متـشبثاً بآرائـه متمسكاً بالكتاب والسنة، معرضاً عـن آراء الفقهـاء واستحـساناتهم، ونظـم في

(1) طوق الحمامة، م، س، ص: 6 ـ 7.

ذلك أشعاراً عديدة منها هذه الأبيات التي أشهد فيها الله والملائكة على نبذة للرأي وإعراضه عن سبيله يقول[1]:

أشهد الله والملائك أني ... لا أرى الرأي والمقاييس دينا
حاش لله أن أقول سوى ما ... جاء في النص والهدى مستبينا
كيف يخفى على البصائر هذا ... وهو كالشمس شهرة ويقينا

وفي قطعة أخرى يعرب عن تشبثه بالكتاب والسنة مصرحاً أن غايته من الدنيا السهر على بث العلوم ونشرها في المجالس مع المجاهدة في سبيل الله طمعاً في الشهادة يقول[2]:

مناي من الدنيا علوم أبثها ... وأنشرها في كل باد وحاضر
دعاء إلى القرآن والسنن التي ... تناسى رجال ذكرها في المحاضر
وألزم أطراف الثغور مجاهدا ... إذا هيعة ثارت فأول نافر
لألقى حمامي مقبلاً غير مدبر ... بسمر العوالي والرقاق البواتر
كفاحاً مع الكفار في حومة الوغى ... وأكرم موت للفتى قتل كافر
فيا رب لا تجعل حمامي بغيرها ... ولا تجعلني من قطين المقابر

ونعرج على مقطوعة تنحو منحى التورية إذ تبدو في ظاهرها غزلاً وهي في باطنها وعمقها دعوة إلى المذهب الظاهري ودفاع عنه، وهي تقوم على محاورة بين الشاعر وأحد العاذلين أطال لومه في شأن الهوى وأنكر عليه الاغترار بظاهر المحاسن الجسمية، فأجابه بأسلوب من التورية لطيف يستخدم كلمة «ظاهري» التي تحمل معنيين، أحدهما قريب وهو الأخذ بظاهر الأمور، وثانيهما بعيد وهو الانتساب للمذهب الظاهري يقول[3]:

(1) سير أعلام النبلاء، م، س، (18/ 205).
(2) المرجع السابق والصفحة.
(3) المرجع السابق، (18/ 208).

وذي عـذل في مـن سـباني حـسنه ... يطيـل ملامـي في الهـوى ويقـول
أمـن حـسن وجـه لاح لم تـر غـيره ... ولم تـدر كيـف الجـسم أنـت قتيـل
فقلـت لـه أسرفـت في اللـوم فاتئـد ... فعنـدي رد لـو أشـاء طويـل
ألم تـر أني ظـاهري وأننـي ... عـلى مـا بـدا حتـى يقـوم دليـل

ونختم هذا المحور بمحاورة علمية دارت بين هذا الشاعر الظاهري وخصومه، بين ضمنها حججه في الرد عليهم، وهي حجج يمكن تلخيصها في الولوع بالنص، والحرص على الدفاع عن سبيله، والإعراض عن مسائل الفروع، لينهي أبياته بجملة شرطية تحمل معنى تهكمياً مضمونه الدعاء على الخصوم أن يموتوا غيظاً ليجهزهم بما هيأ لهم من أكفان يقول[1]:

قالوا تحفظ فإن الناس قد كثرت ... أقـوالهم وأقاويـل الـورى محـن
فقلـت هـل عيـبهم لي غـير أني لا ... أقـول بـالرأي إذ في رأيهـم فـتن
وأننـي مولـع بـالنص لـست إلى ... سـواه أنحـو ولا في نـصره أهـن
لا أنثنـي بمقـاييس يقـال بهـا ... في الدين بل حسبي القرآن والسنن
يا برد ذا القـول في قلبـي وفي كبـدي ... ويـا سروري بـه لـو أنهـم فطنـوا
دعهم يعضوا على صم الحصى كمدا ... من مات من قولـه عنـدي لـه كفـن

د ـ الركون إلى الفخر والاعتزاز:

تعرض أبو محمد ابن حزم لمحن وأزمات عديدة، غير أنه ظل صابراً صامداً أمام الخطوب في عزة وفخار، فقد أحرقت كتبه علناً في إشبيلية، فلم يزده ذلك إلا قوة وتصمياً، فنظم أبياتاً يسجل ضمنها هذه الحادثة ويفتخر بسعة علمه وكثرة محفوظه يقول[2]:

(1) المرجع السابق، (18/ 212).
(2) الأدب الأندلسي، م، س، ص: 357.

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي ... تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي ... وينزل إن أنزل ويدفن في قبري
دعوني من إحراق رق وكاغد ... وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري
وإلا فعودوا في المكاتب بدأة ... فكم دونما تبغون لله من ستر

ونطالع في ديوان الرجل بائية رائعة تحمل نفساً فخرياً مؤثراً إذ يجعل الرجل من نفسه شمساً مشرقة ترسل نورها من مطلع غربي، وكأنه بذلك يشير إلى جانب من العقدة العلمية التي كانت قائمة يومئذ بين المشرق والغرب الإسلامي (الأندلس) فقد كان هنالك منافسة معرفية حادة بين المنطقتين، ولعل هذا النص تعبير عن لحظة من لحظاتها. وقد كشف الشاعر في القصيدة جانباً من التهميش الذي يتعرض له العلماء من قبل الأهل والأقربين، وكأنه ينظم مضمون القولة المشهورة «أزهد الناس في العالم أهله» ولا يجد الرجل غضاضة من أن يفتخر بمكانته العلمية مصرحاً أن أمة لا تقدره حق قدره، ولا تقيم له الوزن المناسب هي أمة قاصرة خاسرة، وينهي أبياته مزكياً نفسه مضفياً عليها صفات العلم والصدق، متأسياً في ذلك بالنبي يوسف عليه السلام الذي وصف نفسه بالأمانة والعلم يقول[1]:

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ... ولكن عيبي أن مطلعي الغرب
ولو أنني من جانب الشرق طالع ... لجد على ما ضاع من ذكري النهب
ولي نحو أكناف العراق صبابة ... ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب
فإن ينزل الرحمن رحلي بينهم ... فحينئذٍ يبدو التأسف والكرب
فيا عجبا من غاب عنهم تشوقوا ... له ودنو المرء من دراهم ذنب
وإن مكانا ضاق عني لضيق ... على أنه فيح مهامهه سهب
وإن رجالاً ضيعوني لضيع ... وإن زماناً لم أنل خصبه جدب

(1) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، م، س، (2/ 79).

ولكـن لي في يوسـف خـير إسـوة ... وليس على من بـالنبي ائتسى ذنـب
يقـول مقـال الـصدق والحـق إننـي ... حفيظ عليم مـا عـلى صـادق عتـب

هـ ـ الصمود أمام الأزمات والأحزان:

لقد عانى الرجل من مضايقات عديدة، فتعرض لعدة محـن جـرت عليـه وبالاً كثيراً، فأبعد عن الأهل، وسلبت منه حريته مرات عديدة، غـير أن ذلـك لم يوهن من عزمه، ولم يمنعه من التصريح برأيه.

وقد سجل جانباً من هذه المعاناة ضمن عينية اخترنا أن نتخـذ منهـا مثـالاً على هذه الأزمات والأحزان، فاكتفينا بإيرادها في هذا المقام مقسمين دلالاتها إلى ثلاثة مقاطع نعرض لها فيما يأتي:

1 ـ مقطع الهموم والأحزان:

ويغطي اثني عشر بيتاً من البداية، وقد استهل بالأرق وامتناع الجفون عن النوم فالقلب مسهد والدموع منسكبة والهموم ملازمة، والغربة مفزعة، مما يجعل الزفرات تتصاعد والأحزان تتزايد بفعل تذكر الأبناء والأحبـة، فينعكس ذلـك على نبضات القلب وأعضاء الجسم، فتبلغ المأساة ذروتها، في مستوى يدفع العدو إلى الرحمة والشفقة يقول[1]:

مـسهد القلـب في خديـه أدمعـه ... قـد طالمـا شرقـت بالوجـد أضـلعه
داني الهمـوم بعيـد الـدار نازحهـا ... رجع الأنين سـكيب الـدمع مفزعـه
يـأوي إلى زفـرات لـو يباشرهـا ... قـاسي الحديـد فواقـا ذاب أجمعـه
إذا تخلـل في أرجائهـا فرحـاً ... ظلـت قواصـفها باليـأس تقرعـه
وإن ونت لوعـة عـن كنـه صـولتها ... هبـت لـه لوعـة رقـشاء تلـسعه
تاهـت بـه في بحـار الحـزن فكرتـه ... حتـى رمتـه سـحيقاً ضـل مرجعـه

(1) شعر المنافي والسجون في الأدب الأندلسي، ص: 54.

كـم فكـرة داهمتـه في مـسارحها ... تـسقيه سـماً نقيعـاً بـات يجرعـه
ذكـرى أفيراخـه في كـل ناحيـة ... تـوحي إلى القلـب أسراراً تقطعـه
كـم قـد تحمـل مـن أعبـاء نـأيهمُ ... نـضوا نبـا بلذيـذ النـوم مـضجعه
قـد عانـد الحـزن حتـى عـاد يرحمـه ... وسـادر الـدمع حتـى جـف مدمعـه
وصـار يرحمـه مـن كـان يعذلـه ... لمـا اصـطفاه مـن الإعـواز أشـنعه
تجـول حلتـه في ذاتـه فـترى ... آثـار مـا الـدهر بـالأحرار يـصنعه

2 ـ مقطع الوحشة والاغتراب:

ويمتد من البيت الثالث عشر حتى البيت السابع والعشرين، وقد رسم النص ضمنه لوحة قاتمة نتجت عن آثار العزلة والانفراد، مما سبب ضعفاً في الجسم وقلقاً في النفس، فأصبح الجسم أشبه ما يكون بشن بالية أو غلالة رثة، وذلك بتأثير النوائب وتعدد المآسي ومصادرة الحرية مع غياب محاور يشتكى إليه، إذ لا يجد الرجل من سلوة سوى الآلام والقيود، فلا يملك ساعتئذٍ إلا أن يلوذ بالأنين والانتحاب مصعداً زفرات في نفس حار يتجرع صاحبه غصص الأسى، غير أنه مع ذلك لا ينسى أن يسترجع في هذا الظرف العسير ذكريات الأهل مستمسكاً بعهودهم ومستحضراً صورهم في ذاكرته ومخيلته يقول[1]:

جـسم تخونـت الأيـام جثتـه ... فعـاد كالـشن مـرآه ومـسمعه
تناهبـت نـوب الـدنيا محاسـنه ... فالـضيم ملبسه والـسجن موضـعه
يـشكو إلى القيـد مـا يلقـاه مـن ألم ... فبـالأنين لـدى شـكواه يرجعـه
يـا هاجعـاً والرزايـا لا تؤرقـه ... قل كيف يهجع من في الكبل مهجعه
أم كيـف حالـة حـي سـاكن جـدثا ... يرنـو بعـين أسـير عـز مطمعـه
قد طال في هاويات السجن محبسه ... وأنشت من شـمله مـا كـان يجمعـه

(1) المرجع السابق، والصفحة.

فكـم زفـير يقـد الـصخر أيـسره ... وكـم أنـين بنـار الوجـد يـشفعه
مـا رجعـت سـجعها حينـا مطوقـة ... إلا ومن فضل شـجوي مـا ترجعـه
ولا تجـرع كـأس الوجـد مـن أحـد ... إلا ومـن فـضل وجـدي مـا تجرعـه
يـا راحـلاً عنـد حـي عنـده رمقـي ... أقـر الـسلام عـلى مـن لم أودعـه
وسـله بـالله عـن عهـدي أيحفظـه ... فعهـــده بمكـــان لا أضـــيعه
وكيـف عنـي وعـن أنـسي تـصبره ... أم كيـف بعـد بعـادي عنـه أربعـه
تجهمـت نـوب الـدنيا لعامرهـا ... فـلا يـد عـن يـد الـضراء تمنعـه
وا طول شوقاه مـا جد البعـاد بهـم ... إلـيهمُ مـذ سـعوا للبـين أفظعـه
لـئن تباعـد جـثماني فلـم أرهـم ... فعنـدهم وأبيـك القلـب أجمعـه

3 ـ مقطع التمني والاسترحام:

وضمن هذا المقطع يلوذ الرجل بالأماني محاولاً أن يخفف عن نفسه بعض المعاناة بعد أن بلغ به الأمر إلى أشده، وحطت الأيام من قدره، فعندئذٍ يأخذ في التضرع إلى الله آملاً منه الفرج واليسر بعد العسر، وجمع الشمل بعد التفرق، مستشفعاً بأحد الحجاب موقعاً نصه بحكمة بالغة تنظم مضمون المثل السائر: «من جد وجد ومن زرع حصد» يقول[1]:

أقـول والـدهر قـد غالـت غوائلـه ... وحـط منـي مكانـاً كـان يرفعـه
عـسى لطـائف مـن لا شيء يعجـزه ... تحنـو عـلى شـملنا يومـاً فتجمعـه
بمبتنـي المجـد مـذ حلـت تمائمـه ... بحيـث لا نـوب الـدنيا تضعـضعه
بحيـث يـشتجر الخطـي في صـفد ... ويفطـم الـسيف ذا بـأس ويرضـعه
بالحاجـب المرتجـى الـسامي أرومتـه ... إلى هـلال الـذي بالـسعد مطلعـه
سـما إلى غايـة في المجـد سـامية ... فنـال غايـة مـا قـد كـان يزمعـه

(1) المرجع السابق، ص: 55.

فأصبحت حلل السامين خاضعة ... لعزه وسماء المجد موضعه
وارتاح للعرف والحاجات يسألها ... فغص بالوفد والآمال مصنعه
نعم الشفيع لمن ضاقت مذاهبه ... لدى الخليفة أسمى من يشفعه
وكل زارع خير عند مضطهد ... فسوف يحصد ما قد كان يزرعه
فعش عزيزاً على الأيام محتكماً ... ما هز ذيل الصبا غصنا يزعزعه

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نسجل الشبه الشديد بين هذا النص وبين عينية ابن زريق التي يعد حفظها من تمام الفتوة واستكمال الظرافة، فقديماً قالوا: «من تختم بالعقيق وقرأ لأبي عمرو وحفظ قصيدة ابن زريق فقد استكمل الظرف»[1].

فالقصيدتان تتقاطعان في الوزن والروي والموضوع، وتتقاربان في عدد الأبيات، فقصيدة الحزمي ثمانية وثلاثون بيتاً، وقصيدة ابن زريق أربعون بيتاً، فهل إحداهما معارضة للأخرى، أم إنه التلاقي في الخواطر والتوارد في الألفاظ إذ يقع الشاعر على الشاعر كما يقع الحافر على الحافر. ولنورد أبياتاً من قصيدة ابن زريق للمقارنة حيث يقول[2]:

لا تعذليه فإنه العذل يوجعه ... قد قلت حقاً ولكن ليس يسمعه
جاوزت في لومه حداً أضرَّ به ... من حيث قدرت أن اللوم ينفعه
يكفيه من لوعة التفنيد أن له ... من النوى كل يوم ما يروعه
ما آب من سفر إلا وأزعجه ... رأي إلى سفر بالرغم يتبعه
كأنما هو في حل ومرتحل ... موكل بفضاء الله يذرعه
وما مجاهدة الإنسان واصلة ... رزقاً ولا دعة الإنسان تقطعه
والله قسم بين الناس رزقهمُ ... لم يخلق الله مخلوقاً يضيعه
والحرص في المرء ـ والأرزاق قد قسمت ... بغي ألا إن بغي المرء يصرعه

(1) تقي الدين بن حجة الحموي، ثمرات الأوراق، دار الجيل، بيروت، 1987، ص: 475.
(2) المرجع السابق، ص: 476.

والدهر يعطي الفتى من حيث يطلبه حقاً ويطمعه من حيث يمنعه
أستودع الله في بغداد لي قمرا بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه

ثانياً: الديوان تجربة وتقويم:

وضمن هذا المحور سنعرض لنقطتين، أولاهما ثقافة ابن حزم الشعرية وتجربته الإبداعية، وثانيتهما بنية القصيدة عنده، وموسيقاها العروضية:

1 ـ تجربة الرجل وثقافته الشعرية:

يلزم التنبيه في هذا المقام إلى أن هذا الفقيه الظاهري نشأ في وسط معرفي يعنى بالأدب حفظاً وإبداعاً، فكان الشعر يمثل جانباً مهماً من ثقافة الصفوة في مجتمع ابن حزم، فالأتراب يتبادلون الأبيات في المناسبات المختلفة، ويرتجلونها في اللحظات المواتية.

ويعترف ابن حزم بأن طائفة من شعره ليست وليدة تجربته الخاصة ومعاناته الشعورية، وإنما هي استجابة لطلب بعض الأصدقاء ممن تنقصهم القدرة على النظم والقريض، ويعرض لهم ما يحبون تسجيله يقول: «فإن إخواني يجشموني القول فيما يعرض لهم على طريقهم ومذاهبهم»[1].

وإلى جانب هذه البيئة المساعدة على إنشاء الشعر هنالك الموهبة والعبقرية، غير أن توجه الرجل الأدبي قد زاحمته السياسة والفقه كثيراً، ولعل ذلك ما شوش إبداعاته الشعرية فجاءت في بعض الأحيان راكنة إلى الصنعة والتكلف، متسترة وراء صرامة الفقه وجفاف السياسة.

وعلى الرغم من ذلك كله فإن هذا الحزمي نظم الشعر قبل أن يبلغ الحلم، وذلك ما صرح به في كتاب الطوق قائلاً: «وفي المذهب الذي عليه الناس أقول من قصيدة قلتها قبل بلوغ الحلم»[2]:

(1) طوق الحمامة، م، س، ص: 67.

(2) المرجع السابق والصفحة.

دليل الأسى نار على القلب تلفح ودمع على الخدين يحمي ويسفح
إذا كتم المشغوف سر ضلوعه فإن دموع العين تبدي وتفضح
إذا ما جفون العين سالت شؤونها ففي القلب داء للغرام مبرح

فهذه أبيات عاطفية تكشف عن طفولة شعرية كان صاحبها ينظم الشعر وهو طالب يتردد على دروس المسجد الجامع بقرطبة، فقد كتب على ذلك العهد أبياتاً غزلية يعرب ضمنها عن تعلقه بفتاة كان بينه وبينها مودة. وقد ضمن هذه الأبيات أشطاراً من معلقة طرفة بين العبد التي كانت من مقرراته المدرسية يومئذٍ يقول[1]:

تذكرت وداً للحبيب كأنه لخولة أطلال ببرقة ثهمد
وعهدي بعهد كان لي منه ثابت يلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

وكان أديب قرطبة وفقيهها أيام طفولته على صلة ببعض الشعراء المجيدين كأبي عبد الرحمن بن سليمان البلوي، وابني الطبني أبو عبدالله بن يحيى التميمي وأخوه إبراهيم، وثمة أصدقاء آخرون نموا في ابن حزم هذا التوجه الأدبي، وأسهموا في صقل ذوقه وتهذيب أسلوبه، ورسخوا في مزاجه النهج الرومانسي، ومن هؤلاء الأمير الشاعر مروان، من أحفاد عبد الرحمن الناصر، واشتهر في الأندلس باسم الشاعر الطليق[2].

ولا بأس أن نوضح في هذا السياق موقف ابن حزم من الشعر، لأن له في نظرنا تأثيراً واضحاً على إبداعه، فينبغي أن نعلم أن هذا الرجل أولاً وأخيراً فقيه ظاهري، ومتكلم خصم مجاله الفرق والمذاهب ومعرفة الأديان.

وقد وقف من الشعر موقفاً مزدوجاً، ففي فاتحة حياته كان شاباً عاشقاً يقول الشعر وينظر له، فقد تحدث عنه عرضاً في طوق الحمامة ضمن باب السلو، متبعاً

(1) دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، م، س، ص: 354.
(2) المرجع السابق والصفحة.

سنن الشعراء الغزليين الذين يصفون مجالس الشرب ومتنزهات الرياضة، فقد نظم أبياتاً استجابة لضنة العامرية ابنة المظفر عبد الملك الحاجب، لتقوم بتلحينها فاستهلها بالدعوة إلى الشراب بين الرياض على نغمات المزمار، ثم عقب على رأيه قائلاً: «ومعاذ الله أن يكون نسيان ما درس لنا طبعاً ومعصية الله بشرب الراح لنا خلقاً، وكساد الهمة لنا صفة، ولكن حسبنا قول الله تعالى ـ ومن أصدق من الله قيلاً ـ في الشعر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾[1] فهذه شهادة الله العزيز الجبار لهم، ولكن شذوذ الشاعر عن مرتبة الشعر خطأ»[2]. فكأنه بهذا يسوغ ميله إلى الغزل ووصف المجالس إذ للشعر دستور نقدي يلزم الصدور عنه.

غير أنه بعد أن تقدمت به السن واستوى عوده عاد إلى موضوع الشعر ليفصل بشأنه القول مسطراً «رسالة التلخيص في وجوه التخليص» وقد كتبها رداً على أسئلة وردت عليه من بعض أصدقائه يستفتون ضمنها عن طلب العلم، وهل الأدب من العلم، وفي هذه الرسالة أبدى رأيه في الشعر جلياً ومفصلاً، فقسمه إلى ثلاثة أضرب يقول: «وأما علم الشعر فإنه على ثلاثة أقسام، أحدها أن لا يكون للإنسان علم غيره فهذا حرام، بيَّن ذلك قوله عليه السلام: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير له من أن يمتلئ شعراً»، والثاني الاستكثار منه فلسنا نحبه، وليس بحرام، ولا يأثر المستكثر منه إذا ضرب في علم دينه بنصيب، ولكن الاشتغال بغيره أفضل. والثالث الأخذ منه بنصيب فهذا نحبه ونحض عليه، لأن النبي (ﷺ) قد استنشد الشعر وأنشده حسان على منبره عليه السلام، وقال عليه السلام: «إن من الشعر حكماً» وفيه عون على الاستشهاد في النحو واللغة، فهذا المقدار هو الذي يجب الاقتصار عليه من رواية الشعر، وفي هذا كفاية، وحسبنا الله ونعم الوكيل[3].

---

(1) سورة الشعراء، الآية 225.

(2) دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، م، س، ص: 369.

(3) المرجع السابق والصفحة.

2 ـ شاعرية الرجل في الميزان:

لنا أن نطرح في فاتحة تقويمنا لتجربته الشعرية سؤالاً من قبل هل كان ابن حزم فيما أبدع من نصوص شاعراً يعبر عن همومه ومشاعره، أم كان مجرد ناظم يستعرض عضلاته ليبرهن على سعة علمه وتوسع معارفه؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال لا ننسى أن نذكر بأن طبيعة الإبداع عند الرجل في بعض المستويات على الأقل كانت وجاهة اجتماعية، كما هو الحال في أعوامه الأولى من حياته، كما أن ثمة أموراً أخرى حدت من جوانب الإبداع عنده، وكادت تقص من جناح خياله وتحول دون تحليقه في سماء الإنشاد الشعري، نذكر منها على سبيل المثال وضعه الاجتماعي الذي يفرض عليه واقعاً معيناً ومعجماً محدداً، وكذلك حياته العلمية الجادة التي تتطلب وعياً دائماً ويقظة مستمرة، ولا نهمل كذلك مواجهته الحادة مع علماء عصره، ومشاركته الفعالة في سياسة أمور وطنه، وأكثر من ذلك فإن انشغال الرجل بالفقه والعقل والمنطق بعيداً عن العاطفة والخيال جعل إبداعه في أحايين كثيرة ينطفئ ويتسم بالنثرية والجمود، وقديماً قال النقاد: «إن شعر العلماء بارد لا وهج فيه» لذلك انتهى أحد المعاصرين إلى ابن حزم في طوق حمامته كان «يستكره شاعريته لكي يقول الشعر ويحصرها في حدود الأفكار التي عرض لها نثراً»[1].

ورغم ذلك فإن جانباً من شعر هذا الحزمي جاء تعبيراً صادقاً عن تجربة حقيقية فزاوج إلى حد ما بين سهولة اللفظ وشرف المعنى، فأبياته في حبيبته نعم من الشعر العذب الجميل، وكذلك تصويره لمعاناته السياسية هارباً ومرتحلاً يخب في أرض الله ويقيم بلا هدف، تسيره الأحداث وترسم خط حركته المصائب[2]. ولعل أوضح مثال على ذلك عينيته المتقدمة.

(1) المرجع السابق، ص: 398.

(2) المرجع السابق، ص: 399.

خاتمة

وصفوة القول إن ابن حزم كان يحلق في سماء الأدب بجناحين، فجاءت أدبيته مزدوجة تجمع النثر الفني إلى محكم القريض على نحو يؤالف بين طوق الحمام ورقيق الغرام، عبر عقد فريد يضم منثور اللفظ إلى منظوم الكلام، ولعل ذلك ما جعلنا ننتهي إلى أن كتاب الطوق كتاب أدب ومحبة وذوق، يفصح عن مستوى من العمق الفكري والتميز العاطفي غير قليل، وسواءً أكان كتب على عهد المراهقة والصغر، أم سطر أيام النضج واستواء العود فهو مؤلف ثنائي التوجه يغوص إلى أعماق النفس البشرية، محللاً العواطف، سائقاً القصص الواقعية المسندة إلى الثقات العدول، مما يجعل منه مدونة عاطفية تعنى بفلسفة الحب على نحو يجمع بين النظرية والتطبيق، فهو دعوة صارخة تنبه إلى ميول النفس البشرية ونزوعها نحو بني جنسها كما هو ذكريات غرامية، سيرة ذاتية دونت نثراً سهلاً وشعراً رقيقاً. وهو في بابيه الأخيرين ينحو منحى وعظياً إرشادياً، فالأول تنفير من المعصية وتبصير بسوء عاقبتها، والثاني ترغيب في الطهر والعفاف وصيانة النفس من الأقذار ومختلف صنوف الطغيان والإسراف.

وبالجملة فليست قيمة الطوق فيما اشتمل عليه من أفكار عن الحب فحسب، وإنما قيمته أيضاً في تلك الحكايات الكثيرة التي يرويها المؤلف والتي تكشف عن جوانب من الحياة الأندلسية، إذ تطلعنا على نماذج من أسرار بعض الرؤساء والحكام، كما ترفع الستار عن الحياة الخاصة لعدد من البيوت والقصور، منبهة إلى أنشطة بعض النساء المهنيات في حقل المحبة، كالطبيبة، والحجامة، والمغنية، والمعلمة، والماشطة، وما إلى ذلك[1].

(1) الأدب الأندلسي، م، س، ص: 400.

وهناك قيمتان أخريان للكتاب، أولاهما اشتماله على كثير من الأخبار التي تلقي الضوء على حياة ابن حزم نفسه، وثانيتهما احتواؤه لمعظم أشعار الرجل بالإضافة إلى نثره، فهو إذن كتاب جامع لبعض أسرار الصناعتين، مبين عن إسهام الرجل في تينك البضاعتين.

وكيف أنه يكتبهما بصيغ لا تخلو من إلهام، وتضرب في حقليهما بسهام.

ملخص البحث

إن هذا المقال يسعى إلى دراسة البعد الأدبي في منتوج الفقيه الأندلسي أبي محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري، واقفاً على تجربته النثرية، وإسهامه في حقل الشعر كذلك، حيث جاءت أدبيته مزدوجة تجمع بين النثر الفني ومحكم القريض، فقد ورد كتابه طوق الحمامة عقداً أدبياً فريداً يضم منثور اللفظ إلى منظوم الكلام.

فهو كتاب يحوي معظم أشعار الرجل ويعبر إلى حد بعيد عن تجربته النثرية، وهذا ما جعله بحق كتاب أدب ومحبة وذوق، إذ يجمع في الوقت نفسه بين العمق الفكري والتميز العاطفي عبر أسلوب متميز يغوص إلى أعماق النفس الإنسانية ويحلل العواطف سائقاً للقصص الواقعية المسندة إلى الثقات والعدول، مما يجعل منه مدونة عاطفية تعنى بفلسفة الحب على نحو يضم النظرية إلى التطبيق، فهو دعوة صارخة تكشف عن ميول النفس البشرية ونزوعها نحو بني جنسها، كما هو ذكريات غرامية وسيرة ذاتية دونت نثراً سهلاً وشعراً رقيقاً.

وبالجملة فليست قيمة الطوق فيما اشتمل عليه من أفكار عن الحب فحسب، وإنما قيمته كذلك في تلك الحكايات الكثيرة التي يرويها المؤلف والتي تكشف عن جوانب من الحياة الأندلسية، إذ تطلعنا على نماذج من أسرار بعض الرؤساء والملوك، كما ترفع الستار عن نواح من الحياة الخاصة لعدد من البيوت والقصور، منبهة إلى أنشطة النساء يومئذٍ، متحدثة عن الطبيبة والحجامة، والمغنية، والمعلمة والماشطة وغيرهن، وفي الأخير نذكر أننا في جانب النثر اكتفينا بطوق الحمامة واعتبرناه نموذجاً للدراسة والبحث.

أما في حقل الشعر فإننا أضفنا إلى مادة الطوق الشعرية مادة أخرى لأن ابن حزم قد ركز في هذا الكتاب على الشعر الغزلي، فأردنا أن نكمل هذا الغرض

بأغراض أخرى تعتمد الصدور عن الحكم والأمثال والرجوع إلى أصول الكتاب والسنة، والركون إلى الفخر والاعتزاز، والصمود أمام الأزمات والأحزان، مقدمين ديوان الرجل تقديماً مادياً ومضموناً، محاولين جهدنا أن نضع تجربته الشعرية في الميزان.

المصادر والمراجع

- الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة: أحمد هيكل، دار المعارف مصر 1979.
- البداية والنهاية لابن كثير: بيروت 1980.
- ثمرات الأشواق - تقي الدين بن حجة الحموي: دار الجيل، بيروت - 1987.
- دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة - د. طه أحمد مكي، دار المعارف، ط 3، 1983.
- سير أعلام النبلاء: أحمد الذهبي، مؤسسة الرسالة، ط 1، بيروت 1984.
- طوق الحمامة لابن حزم: المكتبة الحسنية المصرية، ط 1، 1975.
- القاموس المحيط - الفيروز آبادي، دار الفكر، بيروت 1995.
- المعجم الوسيط، إبراهيم أنيس وآخرون، ط 2، القاهرة 1972.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لأحمد المقري، دار صادر، بيروت 1968.
- وفيات الأعيان لابن خلكان، دار الفكر، بيروت 1980.